

فؤاد التكرلي الدملة

جاوزت الساعة منتصف الليل بقليل ، حينما خرجا من بار « المشرق » وسارا بمحاذاة الرصيف وهما ينفثان الدخان من انفيهما . كان هواء الليل نقيا ، ولم تكن خطواتهما الثقيلة مضطربة . سمع صاحبه يقح بعنف ثم يبصق وهو يكلمه :

« وين سيارتك ابو حسين ؟ »

اراد ان يجيبه انها ليست معه :

« ما ادري . قريبة يمكن . »

لم يشعر برغبة في مرافقته . دار بعينه مفتشا عن السيارة ؛ كانت على مبعدة امتار . اللعنة ؛ وسار اليها يتبعه الظل الاسود . دخلاها وادارا المفتاح ثم اهتزا مع اندفاعاتها المتقطعة . لامس الهواء وجهه باردا ناعما ، وتراخى جسمه مع حركات السيارة الرتيبة . رآه من طرف عينه متكوما جنبه كالقنفذ ؛ لا صوت ولا نأمة ، سوى الدخان البليد . كان الشارع الخالي طويلا تغيب انواره في الافق ، والاشجار على جانبيه تمر سريعة خفيفة . شعر بمثل تيار في نفسه ينساب مع السيارة والاضواء والاشجار والليل ؛ الحياة الماضية والذكريات والاحلام والصور المبهمة . لو كان وحيدا ، مع هذه المشاعر الناقصة ! كلم صاحبه :

« وين صاير بيتكم ابو علاء ؟ »

فاعتدل كمن لسعته افعى :

« شلون عيوني ابو حسين ؟ ماذا اسمع . »

« وين توصل ؟ »

« كيفك ابو حسين . آني ما عندي شغل . للكرادة . »

« شكو عندك بالكرادة ؟ »

فانفجر ضاحكا ثم بدأ يقح ويشهق :

« ما عندي شي . »

وبصق بقوة .

« وبعذك وبه المعجوز ؟ »

عادت الضحكة المتشنجة والشهقات ثم البصقة القوية:

« سنشوي يا ابو حسين ، العيشة تنراد . تمام ؟ »

كان الشارع مظلماً امام اضواء سيارته المتأرجحة ، ولم يكن يعلم من اية جهة يمكن ان يقتل الكرامة . لو كانت معه لفهمت انه لا يوجد الطريق . تتكئ بذراعا على طرف الباب وتفتقر باناملها على حافة الراديو ، وقد تغني او تستمع الى الغناء وتهز رأسها ويهتز قلبه مع همركاتها . كانت ستكلمه بعينها وتسمعه الفاظاً لم تخرج من الشفاه . شعرها الاسود الطويل عيناها الصفراوان .

« تعرف ابو حسين ، آني ما اشرب كل يوم . بالاسبوع مرة ، مرتين . وراها يعجبني خروج اسلم على الجماعة . »

« تبقى تسلم الليل كله عليها ! »

« فكاد يخنق بضحكه وبالدهان الذي ينفثه . لم يدر لماذا قبلها ذاك المساء العطر في زاوية مظلمة من الحديقة . كانت شبيهة متفتحة . شعر ، وهي تكلمه بما لا يدري ، بنفسه ينحني ويمس فمها بشفتيه . لم يقل لها انه يحبها ، لم يكن يعلم ذلك ؛ وكانت منهشة بعض الشيء . ثم انسلا عائدين الى الدار بسكون . لم تخبر امها ، زوجته ، ولا جري ؛ وكان يريد ، هو الشقي ، ان يعطي لهذا الكتمان معنى ما . »

« رأى منعطفا امامه فاستدار استدارتين عنيفتين انفتح بعدهما الافق في شارع عريض مظلم . لم تفارقه آثار وحدته خلال الايام القليلة الماضية . لا يزال متعباً من لا شيء ؛ يحس نفسه مفترساً . ظن ، حين رأى صدفة صاحبه هذا ، انه قد يستطيع بسهرة مع العرق والكباب ان يبعد الظل الاسود الذي يقبع فوق كتفيه . وشرباً قنينة العرق خلال الساعات الاخيرة واكلاً اكثر مما تأكل الحمير وضحكا طويلاً . وكان ستار الغباوة المسدل المتمرار على وجه صاحبه يذكره بعث محاولته صب هواجسه في هذه النفس المغلقة . »

« كانت السيارة تنساب دون اهتزاز ، والهواء البارد يعانق وجهه ويعبث بشعره ؛ وكان الليل هادئاً . لم تفزع حينما ميزت وجهه في ظلمة غرفتها الصغيرة ، ولم تقل له شيئاً معيناً تذكره ، وكانت ابتسامتها تخفي سرا مبها . تسلل الى غرفتها دون تصميم سابق بعد ان ولد ابنه وزوجته يتامان . كانت الدار ساكنة ولم يكن متردداً . اراد ان يتيقن انه قبلها ، مس شفتيها ، وانه لم يكن حالماً وانها لم تكن شبها . واعطته ، تلك الليلة ، من شفتيها الناعمتين ولمس كتفها سعادة وفرحاً لم يحس مثلها من قبل . حدثها بكلمات لا معنى لها عن اشياء لا يفهمها وكانت عيناها تتلامعان في الظلام امام عينيه . »

سمع صاحبه يتكلم :

« شد كول ابو حسين ؟ آني تراه من اشرب آذاني تصير تكيلة . يمكن احنا بعيدين »

شوية عن الكرامة » .

خنقت قلبه تلك الذكريات فردد :

« يمكن . يمكن . يمكن » .

لو كان منفردا في ظلام سيارته ، مع السماء ، مع النجوم ، لاجش باكيا ولاخرج حسرات قلبه مع كل دمعة ساخنة . ولكنه لا يمكن ان يريد هذا . ليس البكاء عادة مفيدة في مثل سنه .

« عندك نار ابو حسين ؟ »

لم يكن قد رآها حين تزوج امها قبل سنوات قليلة . وبقيت خارج وعيه حتى الاشهر الاخيرة ، حين بدأ يشعر بوجودها الطيفي في حياته وبانها عنصر لا غناء عنه في هذه الحياة . وكان ذلك مع اشراقات جسدها الفتي الاولى ومع الرؤى المحرقة لخطوط افخاذها وخصرها وانحناءات ردفها وصدرها . كانت تلك التعريبات ابتذالا لا مبرر له من فتاة طائشة . ولم يبد أنها تقصد شيئا ، ولا كان بوده ان يقصد شيئا هو الآخر .

« عندك نار بالسيارة ابو حسين ؟ اريد اشعل الحكارة الله يخليك » .

« تفضل » .

ولكنه لم يفهم ماذا يحدث له ؛ ويوم صارح نفسه انه يشتهيها وانه لا يمتنع عن اي عمل خسيس كي يناها ، شعر انه يغوص الى اعماق مظلمة لا قرار لها . وكان حزينا ، حزينا . انها ليست هذه الفتاة الغريرة المقادة بعماء نحو الجنس ، وهي ليست اشتها واحلاما ؛ ولكنها الحياة والموت ، النور والظلام . وكان مرتبطا بها ، يحس بمهانة وهو يرى حياته مهددة لسبب رخيص .

كان جو السيارة مضطبا مليئا بالدخان رغم الهواء البارد المندفع من الشباك الصغير وكانت الحسرة ، الصخرة المحرقة ، المدية الحادة ، تחדش صدره . انها تموج وتلاطم مثل ميل البحر ، وترتفع ، ترتفع من اعماق نفسه ؛ ويشعر بالعبرة في اعلى صدره ، في رقبته ؛ فيص باسانه ويضغط برجله على عتلة البنزين . لم يكن يفتش عن الدموع ؛ انها لاتفصل آلامه وهو ليس معدا للبكاء .

« الفرق ما يسوه . دقيقة لو دقيقتين . لويش هالسرعة ابو حسين ؟ آني ما مستعجل »

سحب قدمه عن عتلة البنزين فأبطأت السيارة قليلا :

« آني هم ما مستعجل ابو علاء » .

كان صوته اجش غير ثابت :

« لويش استعجل ؟ هو جم مرة يموت الواحد ؟ »

« شلون ؟ ماذا اسمع ابو حسين . آني آذاني تصير تكيلة ورا اول كلاص » .

« على الموت ؛ على الموت دا احجي » .
« شبيك عيوني ابو حسين ؟ عندك سوء تفاهم ويه الاهل ؟ »
« لا » .

« لعد لويش مقهور عيوني ابو حسين ؟ »
« متى كان للموت سبب يفهمه العقل وتقبله النفس ؟ ولكننا نقرب كل لحظة من هذه التجربة المجهولة . وحين علم بعلاقتها باحد الرجال هبط قلبه بشكل مفاجيء واحس انه قد الكثير من حياته خلال دقائق . لم يبقَ للموت غير ان تتكرر هذه الدقائق . ولم يخل - في الحق - عليه بها . وظهرت ، بعد اسابيع من عملها في احدى الشركات ، بفناء الملطخة بالاحمر القاني والعيون - واأسفاه - الصفراء المثقلة بالكحل ؛ وكانت بطء منتصرة عليه . ولم تسكن ناره ولم يبقَ له غير ان يختار اسوأ ايامه .
« اخوية ابو حسين ، اذا حببت نزلني من السيارة . آني آخذ تاكسي وارجع لبيتنا » .
« واخبرته بضحكاتها العالية وانعطافات سيرها ، وبتعريات ساقها وابطيتها ، انها تعبث بالحياة التي لا تفهمها ، وبالقلب الضعيف المرتعش وبمهانته . بمهانته .
كان يضرب بيده على اطار الشباك الصغير ضربات خفيفة رتيبة وهو يتطلع بذهول الى خط النور المتذبذب على ارض الشارع . وكان صاحبه ساكنا ، يحدق امامه هو ايضا محاولا تمييز الطرق .

« فد جكاراة من فضلك ابو علاء » .

« حاضر عيوني ابو حسين » .

« واسرع باخراج واحدة قدمها له : »

« ما عندي نار ابو حسين . انت عندك قداحة بالسيارة » .

« نعم . نعم » .

« يمكن لو تلفت على اليمنة نطلع على شارع الكراة » .

نفث الدخان فرجع على وجهه مع هواء الليل :

« لو ، اذا حببت ، بس توكف شوية ، خاطر اخوك ينزل ويأخذ تاكسي » .

« لويش ابو علاء ، قابل ما اعرف دربي ؟ شوية بس لا تستعجل » .

« لا عيوني ابو حسين . شكو عندي استعجل ؟ »

« لماذا لا يدعه وشأنه ؟ ولم يجب ان يدينه معه ، ولم يفعل شيئا ؟ مثله ، هو المدان »

« لا الابد ، لانه لم يفعل شيئا ؛ لانه اراد ان يحقق الاشياء على طريقته الرديئة . »

« لا تلومني ابو علاء . آني اريد اوصلك للبيت ، لكن الطريق شوية طويل » .

« نعم . نعم ادرني » .

« آني احب ابقى وياك . تعرف ابو علاء ، صار لي ثلاث ايام ... صار لي ايام ، ما ادري وين جنت ... ما ادري » .

« نعم ، نعم اعرف . على اليسرة ابو حسين ، على اليسرة ونطلع على شارع ابو نواس . اليسرة » .

لم تضطره ان يختار نهاية لشقائه واضطرابه . كانت تعلم امرا ما يبدو لها يقينا لا يتزعزع . وكان ظاهرا انه لا يدخل ضمن اطار حياتها . وعبثا ، عبثا كان يطرد تفسيراته لتلك المخبرات التلفونية المتكاثرة ولغياباتها المستطيلة ولشروود الذهن والارهاق . كانت تعلم امرا مجهولا ، لعله الحكم عليه باذنه شخص اقل نجمه . الا انه لم يستطع ان يرضى بذلك . ومن خلال هروبها المستمر منه واحتجاجها بانقعه الاسباب كي تثور عليه وعلى امها ، انبثقت في ذهنه فكرة زيارتها الليلية . بدت اول الامر فكرة جنونية حمقاء لا جدوى منها ، ثم نمت وتقرعت في ذهنه وقلبه كالسرطان الخبيث . وانتهت ، مع الايام ، بان تملكته . التهمته مثل وحش جائع . لم يبق له مهرب . كانت الحد الفاصل والحصى الشمسية في اطراف جسمه . لم يشعر انه قد ينتهي بعدها ، ولكنه احس عن يقين انه سيموت لو لم ينفذها .

« ابو حسين . عيوني ابو حسين ، شوية على كيفك . الشارع ضيق والشط عالي . لويش مستعجل الله يخليك ؟ »

انتبه الى السيارة تهتز بعنف على ارض الشارع العكرة ، ورأى مياه دجلة الطافحة تنعكس عليها اضواء الشاطئ البعيد . سحب قدمه على عتلة البنزين وغير من جلسته قليلا . كان رأسه يطن وعيناه مجهدتين ، لكنه لم يستشعر تعباً او رغبة في النوم . ود لو استطاع ان يغني اغنية حزينة على شاطئ مهجور ؛ اغنية تذهب بها الرياح ولا يسمع لها صدى . سمع صاحبه يغمغم باشياء لم يفهمها ولم يرد ان يفهمها ، وكانا يسيران بمحاذاة الرصيف والنهر . هل يجب ان نفهم الحياة جيدا وبعمق ، ام ان نغنيها كما نغني اية اغنية حزينة لا معنى لها ؟ ولعلنا ، مع الالحان ، نستطيع ان نعمل كل شيء .

تلك الليلة الربيعية ، قبل ايام ، حينما انسل من غرفتهم الى الحديقة -

« جكارا ابو حسين ؟ آني تقريبا وصلت للبيت » .

- ولبت يتمشى ويستنشق الهواء الرطب كي ينعش قلبه المرتجف . كان ينتظر اشارة مبهمه لا يعرفها كي يمضي في سبيله . خيل اليه ان النجوم ، في السماء السوداء ، اشد لماعا من قبل ، والاشجار الساكنة تخفي اشباحا خلفها ، ولم يدر ماذا يعمل بنفسه المتوحدة . وتتابع الصور في ذهنه بغير معنى ، بغير معنى ؛ وضاعت نفسه مع خطواته المتناقلة وتملكته الحشية من العبرة التي بدأ يحسها تفيض في صدره . انها النوبة التي لا ترحم . ستلفه

هذه الموجة من العبرات بين طياتها واستحيله ، مع الدموع الجارية ، الى صرصار مسحوق .
افزعته هذه الاشارة المفاجئة فاسرع نحو غرفتها . لم تستيقظ عندما وصل سريرها سائرا
في الظلام ، ولم تجبه حينما هس باسمها مرتين . وانتظر من الخوف والحجل والمهانة ، ثم
لمس كتفها الناعمة العارية . وود ، لحظة ، لو كانت ميتة ؛ لو كانت عاجزة عن اجابته ،
عن تكملة مأساته . وفزعت حينما تبينته وتراجعت وهي تخفي صدرها . كان يراها
في الظلمة الخفيفة ؛ تقاطيعها المبهمة الجميلة وذراعيها المضيئتين . ونسي ما اراد ان يقوله لها ،
وادرك انه انتهى مع حركتها هذه . لم يبق له الا ان يبدأ حيث انتهى ، ان يبدأ نهايته .
وكان يكفي ان تلبث في وضعها ذاك ، منكشة بعيدة ، كي ينصرف بهدوء ويقتل
نفسه تحت اشجار الحديقة الساكنة . اما ان تصرخ لغير سبب ، وان تقفز كالشيطان
هاربة الى امها ، فذلك لانها رخيصة مليئة بالردائل .
« عيوني ابو حسين ، الله يخليك . على كيفك » .

ولانه لم يستطع ان ينتزعها من نفسه خلال ايامه الاخيرة في وحدته المفزعة ، ولانه
لم يتغلب على عبراته ، هذا البحر المتلاطم ، ولانه لم يقتلع من اعماق قلبه تلك الدملة
القدرة السامة ، ولانه يبكي الآن —

« اخوية ابو حسين ، دير بالك . الشط . دير بالك الله يخليك » .

كان مرتقيا على عجلة القيادة وهو يحاول الانحراف بالسيارة نحو النهر .
لم تترك له دموعه مجالا للرؤية ؛ وكان يحس ، خلال تشنجات صدره العنيفة ، انه يفارق
نفسه ، يتجرد من الانسان الذي كانه . لا مجال للعودة المهينة . ثم شعر بصدمة تهزه وبلطمة
قاسية على صدغه . لم يفقد وعيه ، وكان يسمع صاحبه يطلق صرخات عجيبة ويمسك
قويا بذراعه . كانت السيارة تتقاذف فوق الرصيف بحركات مجنونة وخط المياه اللامع
يرتفع من جهة لاخرى . لن يمكنهم ان يقولوا عنه شيئا ؛ لانهم وعالمهم ومواضيعهم ،
اشياء لا تتكرر . وكان رأسه يدور ويدور حينما صفت السيارة ماء النهر فانشق ببطء
وابتلعها . لم يخفه الصمت الميت الذي ران عليهما ولا الظلمة الخائفة . احس بتخاذه في
جسمه وهو يستشعر برودة المياه المتدفقة . لن يحدوا اثرا لهما بسهولة ، وكان وحيدا .